الباب الأول

النقد في العصر الجاهلي

1

النقد في العصر الجاهلي

في الواقع أن الشعر الجاهلي لم يبدأ حياته على هذا النظام الكامل الذي وجدناه عليه، وإنما بدأ حُداءً للإبل، وسلوى للنفس في شتى المفازات في عبارات منغومة، ثم في رجز متحد الوزن. ولما أعجب هذا الحُداءُ قائلَه وأطرب سامعه، أراد أن يترنّم به خالياً ليستعيد لذّته الأولى؛ فأطال في أراجيزه، وتفنّن في أوزانه، وضمّن ذلك أفكاره وتجاربه.[1]

ولما كانت طبيعة الحياة تأبى الطفرة، فمن الطبيعي أن هذا الشعر قطع أحقاباً طويلة حتى بلغ هذه الدرجة من النضج والاستواء التي ألفيناه عليها. وكان في كل خطوة من خطوات تطوّره، ينفي الشاعر ما رآه أو رآه الناس عيباً، ويضيف ما عساه أن يستقيم بإضافته البناء الذي بناه. ويمكن أن نعتبر هذا خطوة من خُطا النقد الأدبي، ولكننا بطبيعة الحال لم نقف على هذه الحياة الأولى للنقد، لأننا لم نستطع أن نقف على الحلقات المفقودة في حياة الشعر نفسه.

وحين نضج هذا الشعر، فُتن به العرب، وتغنّوا به، فأعلنوا استحسانهم لما استجادوا، واستهجانهم لما استقبحوا في عبارات موجزة وأحكام سريعة، كانت تمليها الفطرة السليمة. وطبيعي أن يكون النقد في مراحله الأولى ساذجاً بسيطاً، ليس إلا انفعالاً أولياً لقاء الأثر الفني، وتعبيراً عن ذلك الانفعال في عبارات تناسبه سذاجه وأوليّة.

وهناك مظاهر متعددة للنقد في العصر الجاهلي تطالعنا في كتب الأدب، فمن ذلك ظهور الأسواق الأدبية التي كان الشعراء يعرضون فيها بضاعتهم. وقد كان ذلك عاملاً في ترقية النقد، وعلى الأخص سوق عكاظ. فنجد في كتب الأدب أن النابغة كانت تضرب له في سوق عكاظ قبة حمراء من جلد، فيأتيه الشعراء، ويعرضون عليه أشعارهم. وتروي لنا كتب الأدب القديمة مشهداً من تلك المشاهد التي كانت بين النابغة والشعراء في عكاظ؛ أنشده الأعشى مرة، ثم أنشده حسان بن ثابت. ثم شعراء من بعده، ثم الخنساء أنشدته قصيدتها في رثاء أخيها صخر التي منها:

وإنَّ صخراً لتأتمّ الهداة به كأنه عَلَمٌ في رأسه نارُ

فأُعجب بالقصيدة، وقال لها: لولا أنَّ أبا بصير أنشدني لقلت: إنك أشعر الجن والإنس. فالأعشى إذن أشعر الذين انشدوا النابغة، والخنساء تليه منزلة وجودة شعر.[2]

(1) دراسات في نقد الأدب العربي – بدوي طبانة – ص 39.

(2) الشعر والشعراء 73/1، الموشح – المرزباني ص61 ، تاريخ النقد الادبي عند العرب، طه إبراهيم، ص12.

وكان النابغة كثيراً ما يوقف الشاعر أثناء إلقائه ويهجم عليه بنقده؛ فمن ذلك أن حسان بن ثابت أنشده قصيدة قال فيها:

لنا الجفناتُ الغرّ يلمعن بالضُّحى وأسيافُنا يقطرن من نجدةٍ دَمَا
وَلَدْنا بني العنقاءِ وابني مُحَرّقٍ فأكرمْ بنا خالاً وأكرم بِنا ابنَما

فقال له النابغة: "أنت شاعر، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك"[1] وهذا نقد سديد، إذ يتناول فيه النابغة مسألتين:

الأولى لفظيّة، حيث أنّ حساناً لم يجمع الجفنات والأسياف جمعاً يدل على الكثرة، والعرب تستحب المبالغة في مثل هذا الموقف حين يفخر الشاعر بالكرم والشجاعة في قبيلته. والثانية معنويّة، ذلك أن حساناً قد فخر بمن ولدته نساؤهم، والعرب لا تفخر بالأبناء، وإنما تفخر بالآباء والأجداء.

وقد تعرض النابغة لمثل هذا الموقف عندما أقوى في شعره، وهذا نوع من النقد قائم على وقع الشعر في السمع، وعلى الانسجام والتماثل في القافية. وهو عيب دقيق، لأنه خروج جزئي عن تمام الوحدة التي التزمتها القصيدة. وكان النابغة من أجل هذا يقول: دخلت يثرب وفي شعري شيء، وخرجت وأنا أشعر الناس". والقصة كما ترويها كتب الأدب عن إقواء النابغة، تذكر أنه قدم المدينة، فعاب أهلها ذلك عليه، وقالوا لجارية أنشدي في قوله:

أمن آل مية رائحٌ أو مغتدِ عجلان ذا زادٍ وغيرَ مزوَّدِ
زعم البوارحُ أنّ رحلتنا غداً وبذاك خبّرنا الغرابُ الأسودُ

فلما مدّت بصوتها بقافية البيتين أحسّ ما بهما من نشاز، ولم يلبث أن غيّر الروي المضموم فقال: وبذاك تنعابُ الغرابِ الأسودِ[2].

وهذا الخبر يمثّل رقابة النقد الأدبي التي تستمد سلطانها من الحدود الشعرية المفروضة. كما تبدو الموضوعية بأجلى صورها في هذه القصة. فنقد أهل يثرب نقد صادق ليس فيه أثر من آثار الهوى الذاتي، والدليل على ذلك أنهم تلطّفوا في إبلاغ النابغة عيبه بأن دسّوا له الجارية تردّد الصوت، وتطيل في القافية لينبهوه في غير إحراج.

(1) النقد – شوقي ضيف – ص 22.
(2) الموشح – المرزباني – ص 39.

كذلك كان نقاد الجاهلية يطلقون أحكاماً متنوعة على الشعر في أيامهم. ومن تلك الأحكام الأسماء التي أطلقوها على الشعراء، والتي تحوي حقائق عن فنهم الشعري، أو ما يتصل بذلك الفن من قريب أو من بعيد. فالمهلهل سمي كذلك لأنه أول من هلهل الشعر[1] ورققه، وتجنب الكلام الغريب الحوشي. والمُحبِّر (طفيل الخيل) سمي كذلك لتزيينه شعره، والنابغة لنبوغه فيه، والمرقش لتحسينه شعره وتنميته، كما لقبوا النمر بن تولب بالكيّس لحسن شعره[2]. وهذا نوع من الحكم على شعر الشاعر جملة، وذلك بوصف الطابع العام له. وهو نقد أدبي يعتمد على الحاسة الفنيّة، ويقوم على فهم الشاعر جملة، وتذوّق الروح العامة لشعره، والحكم عليه بذلك.

ومن تلك الأحكام أيضاً. الحكم على بعض القصائد بأنها بالغةٌ منزلةً عالية في الجودة بالموازنة بغيرها، وذلك تنويهاً بها وإعظاماً لها، وإيماناً بأنها جيّدة فريدة. فقالوا: إن قصيدة سويد بن أبي كاهل التي مطلعها:

بسطتْ رابعةُ الحبلَ لنا فوصلْنا الحبلَ منها ما اتسعْ

من خير القصائد، وسموها اليتيمة[3] ويروى أن عمرو بن الحارث فضّل حساناً على النابغة وعلى علقمة بن عبدة، وأثنى على لامية حسان التي فيها:

لله در عصابةٍ نادمتهم يوماً بجلّق في الزمان الأول

ودعاها البتارة التي بترت المدائح[4].

ومن هذا النوع أيضاً اختيارهم القصائد المشهورة التي سموها المعلقات. ومما يروى أيضاً من أن علقمة بن عبدة قدم مكة فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها:

هل ما علمتَ وما استودعتَ مكتومُ؟

فقالوا: هذا سِمْط الدهر. ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم:

طحا بك قلبٌ في الحسان طروبُ بُعَيْدَ الشباب عَصْرَ حان مشيبُ

فقالوا: هذا سمط الدهر[5]

(1) الموشح – المرزباني – ص 74 وهلهل الشعر: أي رقّقه.
(2) تاريخ النقد العربي الى القرن الرابع الهجري – محمد زغلول ص74، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، طه ابراهيم، ص14.
(3) المفضليات ص190، النقد الادبي، أحمد أمين 1/2 ص417، أسس النقد الادبي، أحمد أحمد بدوي، ص4.
(4) من النقد الادبي أحمد أحمد بدوي، ج4، ص158، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، طه ابراهيم ص14.
(5) تاريخ النقد الادبي عند العرب، طه ابراهيم، ص13.